رموز ودلالات أعياد نيسان لدى أبناء شعبنا العريق

وليم تيودور

مع شروق شمس الأول من نيسان يصبح الوطن الأم في بداية الربيع وبوّرة الاحتفالات برأس السنة الجديدة من كل عام، ويلبس وطننا زينته الطبيعية وترفرف في كل الأزقة ومداخل البيوت ألوان الطبيعية الخلابة من مقتنيات نيسان "ذقن نيسان والورود الجميلة" تطلب الخير والمحبة والسلام لوطننا العزيز والعالم ويصبح كل شيء من حولنا ربيعا حقيقيا. وتزداد بهجتنا وفرحتنا أكثر وأكثر بسبب تصادف أعياد نيسان الخالدة مع أعياد قيامة الرب يسوع المسيح له المجد ويختلط العيدان معا.

وهكذا تستعد جماهير شعبنا في كل مكان لاستقبال عيد نيسان الأغر رأس السنة البابلية الآشورية وعيدنا القومي "اكيتو"، هذا العيد المتوارث عبر الأجيال ومنذ آلاف السنين، وأحتفل به شعبنا في وطنه بيت النهرين وفي جميع الحقب والأزمنة بضمنها تلك التي كانت أكثر حالكة وسوادا ذاق فيها شعبنا قهرا واضطهادا، ولكنه أحتفظ خلالها برموز بسيطة للاحتفال بهذا العيد، وفي القرنين الأخيرين أصبح الاحتفال بهذا العيد التزاما قوميا نظرا لتصاعد الوعي القومي لأبناء شعبنا.

وأختار آباؤنا وأجدادنا "البابليين الآشوريين" الأول من نيسان عيدا لرأس السنة إيماناً منهم بأسطورتين: الأولى، قصة الخليقة وبطلها الإله مردوخ "آشور في نينوى" إله الحق والخير الذي يقسم "تيامات" آلهة الشر في صراع بطولي وملحمي إلى نصفيين ليخلق منهما السماء والأرض وثم الإنسان وتبدأ الحياة والطبيعة على الأرض.

الثانية، تقوم على أساس انبعاث الإله تموز وقيامته من بين الأموات بعد أن أحزنت وألمت زوجته وحبيبته الآلهة عشتار، من حكم الشياطين الأشرار، فيعود للحياة في موسم اعتدال الربيع ونمو العشب والزرع كرمز لبدأ الخليقة في شهر نيسان.

واحتفالنا بأعياد نيسان لها الكثير من الرموز والمدلولات التاريخية والتراثية وقيم العقائدية السامية وسنحاول التطرق إليها لتعريف مغزاها لقراء الأعزاء:

البابليون الآشوريون وعلم الفلك

الآشوريون الذين توارثوا علم الفلك والتنجيم من أجدادهم البابليين تمكنوا من مراقبة الكواكب والنجوم والأجرام السماوية وبدقة متناهية، وسجلوا تواريخ الظواهر الطبيعية ككسوف الشمس وخسوف القمر وتنظيم الدورات الزراعية، وكذلك تمكنوا من تقسيم السنة إلى شهور والشهور إلى اسابيع والاسابيع الى أيام والايام إلى ساعات والتي تعتبر اليوم أساساً راسخاً لعلم الفلك، وعرفوا الشيء الكثير عن الكواكب، وكذلك أصبح تقسيم السنة بهذا الشكل أساسا لتقسيم الأزمنة إلى الأنظمة المعروفة لدينا اليوم. وكذلك تمكنوا من تنظيم التقاويم السنوية ومعرفة شهور السنة وتسميتهم بأسماء الآلهة مثل الإله نيسانو "شهر نيسان" والإله تموز "شهر تموز" والإله أنليل "شهر أيلول" وهكذا وثم أتخذهم الإغريق والرومان أسماء لشهورهم وثم استبدلوهم بأسماء ملوكهم وسلاطينهم. وهذا الإنجاز كان له أشد الأثر فيما بعد لتقسيم السنة بدقة متناهية حيث تمكن الفلكي البابلي "كيدينو" في سنة "٣٧٥ ق.م" من قياس السنة الشمسية، وهذا بدوره كان له تأثير كبير في تسهيل عمل الآشوريين في تنظيم التقاويم السنوية وتسجيل الأحداث التاريخية والظواهر الطبيعية منها الأول من نيسان رأس السنة الجديدة وبداية الخليقة المرتبط ببدء موسم اعتدال الربيع ونمو العشب والزرع والحيوانات، والذي أصبح فيما بعد عيدا دينيا وقوميا لجميع ساكني بيت النهرين والذي أستمر لآلاف السنين والى يومنا هذا.

إلى ماذا كانت ترمز مراسيم الاحتفال برأس السنة الجديدة؟

أ. اعتدال الجو ونمو العشب وخاصة الشعير الذي كان المصدر الأساسي للغذاء في ذلك الوقت، حيث كان الملك يقوم في اليوم الأول بالتجوال حول تمثال الإله أشور ويكسيه بقش الشعير للتعبير عن شكره للمحاصيل الوفيرة، ب. تقديم المجد للإله المقدس في المدينة المقدسة مع سلسلة الطقوس الدينية والسحرية التي كانت تجري على يد الكاهن في الهيكل الخاص بالإله، وكان يبدأ بالتجوال حول الهيكل ويقيم الصلوات وهم ساجدون للقبلة نحو شروق الشمس التي تعتبر مركز الكون وينبوع الحياة على الأرض. وهذه القبلة دخلت في كنيسة المشرق التي تمارس طقوسها إلى يومنا هذا، وهذه الاحتفالات كانت تجري في اليوم الثاني والثالث، ج. تذكير الملك وحاشيته وجميع سكان مملكته بيوم بدأ الخليقة، حيث يقوم رئيس الكهنة في اليوم الرابع بتلاوة سفر الخليقة للملك ولجميع الناس، وثم تقوم مجموعة بأداء مسرحية ترمز لتفاصيل ملحمة الخليقة وبطلها وثم يعلنون رسميا بدأ السنة الجديدة، د. تقديم القربان والذبيحة للإله وتقديس الهيكل بمسح جداره بالدم، وتقديس مياه نهر الدجلة بإلقاء الذبيحة والمحرقة فيه وهذه كانت احتفالات اليوم الخامس، هـ. اليومين السادس والسابع كانا أهم أيام الاحتفال للملك والطبقة السياسية، حيث كانت تجري تغيرات سياسية وقانونية في المملكة، حيث في اليوم السادس كان الملك يصغي ويستمع للإله المقدس ويقدم صلاة الغفران، ويؤدي القسم اليميني لإتمام الواجبات الموكلة إليه لحماية مملكته من الأعداء. وكذلك كان يقوم الملك بالتضرع والتوسل للإله لاعطائه حكما عادلا ليحكم وتقديس مملكته من قبل عامة الناس. وأن احتفالات اليوم السابع كانت تضم إجراء مقارنة بين النظام السياسي الحاكم المستقر والأمن وبين السلطة السياسية المضطربة والفوضوية وتأثيرهم على حياة الناس وكيفية اهتمام السلطة الشرعية بحياة الناس. حيث كان الملك ينزل في هذا اليوم من عرشه ويعلن للناس بأن الإله قد هاجر وصعد للسماء، و. وفي اليوم الثامن كان الإله يعود إلى الأرض والملك يصعد إلى عرشه في المساء ويعود الأمن والنظام للمملكة مرة أخرى، ز. أما بقية أيام الاحتفال كانت خاصة بالزواج المقدس وإظهار أهمية الخصوبة والوفرة وزيادة الإنجاب، وأيام أخرى كانت خاصة بمعرفة الاغتراب وقراءة الحظ للناس من قبل الإله للسنة المقبلة.

واليوم الأخير "الثاني عشر" للاحتفال كان خاصا باحتفالات الختام بإعطاء البركة للملك والشعب من قبل الإله وتوديع الضيوف والمشاركين والمتفرجين.

لماذا نضع باقة "حزمة" من العشب الأخضر فوق مداخل البيوت في بداية شهر نيسان؟

العشب الأخضر والذي يسمى "ذقن نيسان" الذي معناه ما اقتناه نيسان من خيرات وبركات، حيث كما هو معلوم أن في شهر نيسان تنبت أغلبية النباتات وتزهر الورود والأعشاب والأمطار تكون غزيرة في هذا الشهر، وبهذا يكون شهر نيسان شهر الخير والسعادة ويعطي البهاء والجمال للطبيعة. وكذلك يرمز (ذقن نيسان إلى اقتراب الربيع "بيث نيساني" وبدء السنة الجديدة حسب التقويم البابلي الآشوري القديم).

وكان أجدادنا يبدأون الاحتفال من صباح هذا اليوم الأول من نيسان إلى المساء، وكانوا يقدمون الذبائح ويقيمون الولائم ويوزعون الحلويات والأطفال يفرحون ويمرحون بهذا اليوم المبارك في المروج ويتسلقون الأشجار. وهكذا نرى بأن ذقن نيسان هو من الرموز القومية التي نحتفظ به إلى يومنا هذا.

كذبة نيسان!

ترمز الألواح الطينية المكتشفة بأن الاحتفالات في بابل وأشور وبقية المدن كانت تستمر لمدة "١٢" يوما حسب عدد شهور السنة، وكانت تمارس فيها كثير من الممارسات والأنظمة الدينية وتقديم الذبائح وتسيير المواكب أثناء الاحتفال، وكذلك كانت تقام مسرحيات ترمز إلى بدء الخليقة "السماء والأرض والإنسان". وكذلك ترمز الألواح الطينية بأن التنكر في الاحتفالات كان سائدا وعادة رئيسية خاصة في احتفالات رأس السنة. وأن ظاهرة كذبة نيسان مأخوذة من التغيرات التي كانت تجري في المملكة في شهر نيسان حيث كانت تعم الفوضى والاضطراب في عرض المملكة، حيث في اليوم السابع كان الإله "مردوخ– آشور" يختفي من أمام الأنظار لذهابه إلى محاربة تيامات آلهة الشر وكان يرافق هذا الاختفاء ضياع الإدارة مما يؤدي إلى أن تعم الفوضى والبلبلة في البلاد، وهذا ما كان يمثله الملك بانسحابه من الساحة في ذلك اليوم من الاحتفالات مما يؤدي إلى اختفاء الإدارة والنظام وذلك بتسليم الحكم بيد المجرمين والإرهابيين لتعم الفوضى. وهذا ما اصطلح عليه لاحقا بكذبة نيسان وهذا كان يدوم ليوم واحد فقط، ففي اليوم الثامن كان الإله مردوخ يعود مكللا بالنصر على الشر، ويعود الملك ويصعد إلى عرشه ويعود النظام إلى المملكة من جديد. ولذا نرى بأن كذبة نيسان ليس لها أساس، وهذا اليوم هو يوم مقدس ولا يجب أن يكذب فيه الإنسان، إلا أن أعداء أمتنا عوضا من اليوم السابع التي كانت فيه تقدم دراما لإظهار أهمية النظام الرسمي الشرعي ومقارنته بالنظام غير الشرعي المتمثل بالفوضوي والمضطرب والظالم والمضطهد، أرادوا تكذيب السنة الآشورية والانتقاص من أهميتها واستبدالها بيوم آخر.

وهناك طقوس ورموز أخرى مازالت تمارس وتعج بها القرى الكلدوآشورية وتدل على احتفال أحد الأيام الأثني عشر. ففي حفلات الأعراس وخاصة اليوم الثاني منها تجري دراما تمثلها مجموعة من الحاضرين تقف إلى جانب الزوجين في إدانة الآخرين من المدعوين كإشارة إلى الملك والملكة الحقيقيين، وبعدها يستبدلان بآخرين عن طريق مجموعة أخرى فيبدأن ببث الفوضى والاضطراب بين الناس وإدانة من يحلو لهم إلى أن يتم إعادة الزوجين الحقيقيين، وهي أشارة إلى اليوم السابع من احتفالات نيسان عندما كانت تسلم مقاليد الحكم إلى ناس عاديين وشحاذين فتسود الفوضى والاضطراب في البلاد إلى نهاية اليوم ليعود الملك من جديد ويعود الأمن والنظام إلى المملكة.

كما أن يوم "كالو سولاقا" المعروف لدى أبناء شعبنا إلى اليوم، والذي فيه يتم اختيار احدى الفتيات لترتدي ملابس الاحتفالات الخاصة بالزواج، فتبدأ المجموعة تطوف من بيت إلى آخر في القرية، هو الآخر إشارة إلى اليوم الحادي عشر من الاحتفالات التي يعلن فيها الزواج المقدس بين الإله وسيدة من أجمل بنات البلاد ينتخبها كهنة المعبد.

وكذلك تلوين البيض بألوان زاهية مختلفة تدل على بدء الخليقة واقتراب الربيع الذي فيه تنبت النباتات وتزهر الورود وتكسى الطبيعة ببهاء وجمال رائعين، والانتهاء من فصل الشتاء القارص الذي يكسي الطبيعة بالثلوج، وتدل البيض أيضا على أصل الإنسان الذي يكون من البيضة وثم الجنين، ونلاحظ بأن هذا التقليد قد دخل المسيحية ولازلنا محافظين عليه إلى يومنا هذا وترمز ايضا الى قيامة الرب يسوع المسيح من بين الأموات لكي نقوم نحن المؤمنين معه، حيث تدل الالوان الزاهية "الاحمر– البنفسجي– الاصفر.." الى الفرح والسعادة والانتصار، حيث بقيامة الرب يسوع المسيح من بين الاموات أنتصر على الموت وعمت الفرحة والبهجة المؤمنين، وغيرها الكثير من الأدلة والأمثلة التي يتمسك بها شعبنا بالاحتفال بعيده القومي بصورة أو بأخرى.

من هنا كانت تأتي أهمية الاحتفاء ببداية العام الجديد مع بداية شهر نيسان انطلاقا من موروثهم المتناهي في القدم وانسجاما مع معاني الحياة والتجدد وخصوصا في الطبيعة التي كانت متميزة في بلاد مابين النهرين كونها طبيعة زراعية غنية وشعبها يعتمد أساسا على الزراعة.

ومن أجل هذا فأن احتفالنا بهذا اليوم الأغر العيد القومي ومحافظتنا على رموزه ودلالاته يقربنا من جذورنا العريقة الضاربة في عمق التاريخ، لذا فهو يمثل رمز وجودنا القومي.

رصافة هشام: مدينة ذات تاريخ حافل

فؤاد يوسف قزانجي

بعد تقدم الجيش الآشوري في عهد الملك شلمانصر الثالث "٨٥٨–٨٢٤ ق.م" لتوسيع رقعة الأمبراطورية الآشورية، توقف في قرية تبعد زهاء أربعين كيلومترا عن نهر الفرات الذي يجري في السهل السوري، وهناك أشار الملك شلمانصر ببناء موقع أو حصن وضع فيه حامية لإسناد ظهر الجيش الآشوري المتجه غربا نحو شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وحول ذلك الموقع قامت بلدة في عام ٨٤٠ ق.م أطلق عليها الآشوريون اسم راسابّا (١) Rasappa جاء ذكرها في التوراة وفي سفر الملوك الثاني باسم "رصف" وسماها بطليموس بهذه الصيغة ايضا، وسمتها المصادر السريانية ريشابا ثم سرجيو بوليس (٢). بعد مرور قرن من الزمن مر جيش الملك سنحاريب "٧٠٤–٦٨١ ق.م" من هذه المدينة الى الساحل الفينيقي. وهكذا فقد ذكرت رصابا في حوليات الملوك الآشوريين في السنوات "٨٤٠ ق.م، ٨٣٨ ق.م، ٨٠٤ ق.م، ٧٧٥ ق.م، ٧٤٧ ق.م" كما أصبحت رصابا مقرا للحاكم الآشوري "شكنو"، كذلك ورد اسمها في وُقيم لأدد– نيراري الرابع ضمن المقاطعة السورية التي كان يحكمها "اورکلو– اريش" (٣).

وقد اشتهرت هذه المدينة عندما تم تنفيذ حكم الموت فيها على أحد الفرسان التابعين للجيش الروماني لجهره بالمسيحية الذي يدعى مكسيمونوس سرجيوس وذلك في عام "٣٠٧ م". وفي عهد الأمبراطور غايوس غاليروس لخزن مياه الأمطار فيها، كما أصبحت سرجيوبوليس مركزا اسقفيا بعد انتشار المسيحية في سوريا في القرن الخامس الميلادي وكان أول أسقف لها يدعى "مار بنيانوس" إذ في حوالي عام "٤٣٤م" رفع البطريرك الأنطاكي هذه المدينة الى أسقفية. وكانت مدينة سرجيوبوليس بالاضافة الى مركزها الديني ذي الشهرة، مركزا لحامية بيزنطية كبيرة لحفظ الأمن والطرق في البادية الشمالية الفراتية ولحماية حدودها الشرقية، وكانت مساحة المدينة عشرين هكتارا. ولما توفرت العطايا والنذور من الغساسنة لمرقد الشهيد سرجيوس، اقام الأمبراطور جو ستنيان الأول "٥٢٧– ٥٦٥" سورا منيعا محصنا حول المدينة خوفا عليها وعلى حاميتها من غارات المناذرة والفرس. ولما كانت سرجيوبوليس لا تقع على مجرى مائي ولا يوجد في أرضها عيون للماء، فقد اهتم البيزنطيون بتوفير المياه للسكان بحفر صهاريج داخل السور في بطن الأرض. وكان هنالك سد طوله ٥٠٠م يحجز مياه الامطار التي تنحدر نحو الصهاريج التي تتسع الى "٢٠٠٠٠ م٢" من الماء يوزع من خلال مجاري حجرية تحت الشوارع الى بيوت المدينة. وكان في المدينة قد بنيت خمسة كنائس الا ان واحدة منهم كانت تنفرد بعمارتها. وظلت المدينة ذات غالبية مسيحية، حيث كانت مركزا أسقفيا تعاقبوا على كنيسة سرجيوس الكبرى رجال دين حتى سنة ١٠٩٣ (٦).

ولم تمنع قدسية المدينة الفرس ولا القبائل العربية المتحالفة معها من مملكة الحيرة من غزوها وتخريبها في كل مرة يصلون اليها متجهين نحو الحواضر السورية الاخرى. وفي احدى الغزوات انتزعت احدى القبائل الحيرية صورة مذهبة ومزينة للشهيد سرجيوس من الكنيسة الكبرى. وقد حاصر كسرى الأول المدينة عام ٥٤٠ وعاد اليها عام ٥٤٢ لكنه لم يفلح في اقتحام أسوارها فغادرها الى الرقة التي فتحها بعد ان أقام جسرا على الفرات.

ظلت مدينة سرجيوبوليس مركزا قتاليا لتجمع جيش الغساسنة، كما عقد فيها احد مجامع الأساقفة. وكانت لغة الكنيسة وثقافتها هي السريانية الى جانب اليونانية، ولغة التخاطب اللغة العربيةوذلك حتى الفتح الاسلامي في حوالي منتصف القرن السابع.

ورد في المصادر السريانية ان الأسقف "برعدتا" كان من بلدة "رصفا" على شاطيء الفرات ودرس في نصيبين ولزم ابراهيم الكشكري وترهب معه في جبل الازل قرب ديار بكر ثم نزل الى احدى قرى نينوى وبنى فيها ديرا.

ضعفت اهمية مدينة سرجيوبوليس التي سميت آنذلك رصافا وهو تحريف اسمها الاصلي رسابا، بعد ان غزاها الفرس اخيرا خلال الأعوام ٦١٣–٦١٤ وخربوا بعض أبنيتها.

لكن مدينة رصافا، في العصر الاموي، اهتم بها الخليفة هشام بن عبد الملك فجددها وبنى له قصرا فخما فيها، لأنها وصفت له بهوائها العذب والخالية من الهوام والبق. وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجمه بعد مرور اربعة قرون على اهمالها في نهاية القرن الثامن قائلا: "ان ملكها النعمان بن الحارث بن الايهم قد أصلح صهاريجها، وصنع صهريجها الأعظم؟!". وهذا يدل على انها كانت عامرة قبل الاسلام، ولعل الخليفة هشام قد عمّر سورها او بنى فيها أبنية يسكنها.. وقال الاصمعي: الزوراء رصافة هشام وفيها دير عجيب ولها سور. وكانت المياه في الصيف تنقل من الفرات في جلود على الحمير لأغنيائها، وعندهم آبار واسعة طول كل منها "١٢٠" ذراعا وربما اكثر.. ولهم حذق في عمل الأكسية وجلهم يعملون في غزل الصوف ونسجه. وقد غنى الفرزدق وهو يخاطب فرسه بقوله:

الام تلفتين وانتِ تحتي
وخير الناس كلهم امامي
متى تردي الرصافة تستريحي
من الأنساع والجُلب الدوامي

والأنساع والجلب الدوامي أنواع من الأردية الصوفية التي اشتهرت بها المدينة. كما ذكر المدينة ايضا ابن بطلان الطبيب السرياني "ت ١٠٧٨" قائلا: وفيها قصر "يعني قصر الرصافة لهشام" حصن دونه دار الخلافة ببغداد، مبني بالحجارة. وهذا القصر في وسط بريّة مستوية السطح لا يُرد البصر من جوانبها الا الأفق. (٧).

كانت البيعة الكبرى في المدينة ظاهرها مزين بالفص المذهب أي الفسيفساء وتحت البيعة صهريج في الارض على مثل بناء الكنيسة معقود على أساطين الرخام، مبلط بالمرمر مملوء من ماء المطر، وسكان هذه البلدة بدوا أكثرهم نصارى، معاشهم تخفير القوافل وجلب المتاع. (٨).

وقد اطلق عليها المؤرخون العرب رصافة هشام أو رصافة الفرات أو رصافة الشام، لعلها أقدم الرصافات في العالم العربي اذ لم تنافسها رصافة واسط التي بنيت في بداية الفتح الاسلامي "٣٠ كم عن مدينة كشكر أو واسط". كما تعددت المدن التي شيدت باسم رصافة في العراق وشمال افريقيا والاندلس وغيرها. (٩)، اذ بنيت رصافة اخرى في قرطبة بناها حفيد الخليفة هشام الامير الاموي الشجاع عبد الرحمن الداخل الذي دخل اسبانيا "الاندلس"، وتلتها رصافة نيسابور ثم رصافة البصرة ورصافة ابي العباس في الانبار ورصافة الكوفة، واخيرا رصافة بغداد، أي رصافة المهدي بناها له الخليفة المنصور في الجانب الشرقي من دجلة ولا تزال رصافة بغداد الوحيدة العامرة في حين امست رصافة هشام أو مدينة سرجيوبوليس أو بلدة راسابا الآشورية قرية خربة لا يلجأ اليها الا البدو الرّحل. ومن الجدير بالذكر ان الخليفة هشام حينما مرض جاء الى المدينة ثم توفي ودفن في رصافة هشام سنة ٧٣٤م.

اما القديس سرجيوس فقد شيدت في العراق وسوريا ولبنان وغيرها كنائس عدة وديارات متعددة بأسمه أو بأسم سرجيس أو كوركيس من بينها في العراق دير مارسرجيوس القديم في مدينة عانة التي كانت احدى المراكز الدينية للسريان الارثوذكس في القرنين السادس والسابع الميلاديين. وكذلك دير سرجس الذي يبعد بضعة كيلومترات عن الكوفة، وهو الآن آثار خربة لم يبق منه الا أثر قباب تسمى قباب "ابو نواس"!. (١٠).

المصادر:

١. Grayson,A.K. Assyrian and Babylonian chronicles. New York, Lucust, 1975 "P.18".
٢. عبودي، هنري. معجم الحضارات السامية. بيروت: جروس برس، ط٢/ ١٩٩١ "ص ٤٢٤".
٣. دائرة المعارف الاسلامية. "حـ ٩" ص: ١١٩–١٢٠.
٤. برهان، حنا ايليا. صنع التاريخ. حلب: دار ماردين، ١٩٧٧ "ص: ٤٧".
٥. حداد "الاب" بطرس. كنائس بغداد وديراتها. بغداد: شركة الديوان، ١٩٩٤ "ص: ٨٧".
٦. عياش، عبد القادر. حضارة وادي الرافدين: مدن عراقية "اعداد وفاء عياش" دمشق: ١٩٩٤ "ص: ٥٢–٥٨".
٧. الحموي الرومي، شهاب الدين ياقوت. معجم البلوان. بيروت: دار صادر، ١٩٧١ "مج٣/ص: ٤٦–٤٩".
٨. شيخو، "الاب" لويس. شعراء النصرانية بعد الاسلام. بيروت، دار الشرق، ط٤/ ١٩٩١ ص: ١٧–١٨/حـ٣.
٩. لسترانج، غي. بلدان الخلافة الاسلامية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد. بغداد: ١٩٥٤ "ص: ٦١".
١٠. الشابشتي، ابو الحسن علي. الديارات، تحقيق كوركيس عواد. بغداد: مطبعة المعارف، ط١٩٥١/١ "ص: ١٤٧–١٥٠".

ليس سهلا ان تخوض حديثاً عن.. العسل

الدكتور غضنفر حكمت محمود الشيخ*

تارة ترى العسل كثيفا، وتارة سائلا، ثم هو مختلف ألوانه.. متبلورا تجده.. وشديدة حلاوته.

وتساؤلات اخرى مبهمة كثيرة، اثارت جدلا واسعا، واختلطت الحقيقة بالأسطورة، حتى صار العسل لغزا يختلف فيه الناس، ما بين مغال في فوائد، متطرف وآخر منكر لها متعنت، لكنهم لم يختلفوا قط في انه طعام مغذ ولذيذ ونافع. والتزاما منا بموضوعية الطرح لاحظنا ان نضرب صفحا عن كل ما يقال وان نقدم للقارئ مضمونا علميا دقيقا لما عرفه الانسان عن العسل ذلك الذهب السائل بوعي عقلاني.

لقد أقيمت للعسل مكانة رفيعة واعدّ رمزا للغذاء الخصب واتخذه البعض وسيلة للتقرّب من الآلهة.

لون العسل

قبل ان نتناول الحديث في هذا الموضوع أو بالاحرى بدل ان نخوض معترك كهذا اربك الكثير من الناس، ان نقطع دابر التشكيك لما تلعبه الأزهار والدبقيات التي تفرزها سواء أكانت الحشرات الاخرى أو النباتات.

وفي كل حال فان اللون في العسل أمر ثانوي ليس في جودته. العسل أصلا "أصفر عنبري" وقد يكون لونا أبيض مائيا، كهرمانيا وكهرمانيا فاتحا أو غامقا وهناك القاتم.

العسل الناتج عن ازهار الخضر والقطن أصفر زاه، والتفاح مثلا يعطي عسلا أصفر فاتحا والحنطة السوداء عسلها داكن تشوبه حمرة خفيفة الى البني القاتم، عسل الصنوبريات محمر داكن، وزهرة العوسج عسلها أبيض شفاف، وكلما تكثر المعادن في مصادر الرحيق يكون العسل داكنا ايضا هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان الشمع القديم الأسود يكون عسله داكنا، في حين يكون العسل المستخرج من الشمع الحديث عسلا زاهيا.

تبلور العسل

تلعب نسبة السكر سكر الكلوكوز "سكر العنب" الى سكر الفركتوز "سكر الفاكهة" وسكر السكاروز "سكر القصب" دورا فعالا في عملية التبلور، فاذا زادت نسبة سكر العنب يتبلور بسرعة واذا زادت نسبة سكر الفاكهة بطؤ التبلور أما اذا زادت نسبة سكر القصب فمن الصعب ان يتبلور ومن العسل ما يتبلور في الغالب متجانسا ومنه رسوبيا وآخر طبقيا كعسل الصنوبريات.

لذا نلتمس من قارئنا الموقر ان يعي هذا الجانب حيث ان كل أنواع "العسل الطبيعي" تقريبا تتبلور وهذا دليل جودة العسل ونقاوته.

طعم العسل وحلاوته

عوامل عديدة تؤثر على طعمه مثل طبيعة التربة المزروع بها المحاصيل وتركيبها الكيمياوي وكذلك نسبة المواد الموجودة مثل الكلوروفيل والتانين والمواد الغروية.

والطعم أو حتى النكهة هي مزيج من عطر الزهرة وعطر النحلة ورائحة الشمع وخصوصا مادة "الحامض النملي" التي تسود رائحته ايضا على خلية النحل نفسها. لذا فمن اللافت للانتباه ان العسل الناجم عن تغذية النحل على الصفصاف من ارتشاحات حلوة المذاق غنية بنسب عالية بـ "الحديد".

وهناك أشجار تفرز مغثرها "إما عفوا أو بالتخزين أو من وخز بعض الحشرات" كقرمزية المن وحشرة المران وغيرها. ومواد سكرية دبقة داكنة تفرزها بعض أنواع الحشرات على سيقان النبات وأوراقه كحشرة الأرق وايضا المن.

ينقل النحل هذه المواد السكرية الدبقية كما ينقل الرحيق من الأزهار أو القداح.

وتذكّر دائما يا قارئي: ان النحلة عاجزة من خرق قشرة الفاكهة لكي تشدخها وتمتص السائل السكري، فهي بريئة من هذا الايذاء للفواكه، هذا السلوك طبيعي تتميز به الطيور والزنابير وحشرات اخرى وبعض الحيوانات مما يسهل للنحلة ان تهبط على الثمار المشدخةفتمتص العصير و "تستنقذه" من تلف محقق لا يستفيد منه احد وبهذا تكون قد أنقذت ثروة كبيرة من الضياع وحولتها الى عسل لذيذ فيه شفاء للناس.

والنحلة ساهرة ولا تفرط بشيء من مادة السكر الثمينة.. بل تتأبط بحزم على التقاطه وجمعه حيثما وقعت عليه.

عسل المغثر اذن.. هو ايضا عسل "رفيع الصنف" المتميز برائحته ولونه وطعمه وخواصه السكرية يأكله الانسان فيدن عليه شدقا، ويكلع شفتيه، ويعلق عليها كالدبق، احيانا يقترب طعمه الى طعم "الزبيب" يكون داكن اللون كثيفا دبقا صعب الاشتيار لا يتبلور الا نادرا غير مستحب لدى بعض الناس لكنه غني بمادة "الدكسترين" وانه مطلوب في الصيدليات لوفرة هذه المادة وأدرك الكثيرون من المهتمين بنوعية العسل انه خير علاج لـ "فقر الدم".

عسل المغثر مرغوب فيه جدا في المانيا الغربية وبعض البلدان الاوروبية. وأسعاره مرتفعة اعلى بكثير من أسعار العسل الآخر.

* رئيس اللجنة العلمية لاتحاد المزارعين العراقيين.